التوحــيد في محــبة الله سبيــل إلى محبة عباد الله

م.د.صادق كاظم عباس الساعدي
عضو الهيئة التدريسية في كلية الامام الكاظم (ع) قسم الشريعة
Email: sadeghsaedi60@yahoo.com

الكلمات المفتاحية:(التوحيد ،المحبة ،العباد ،المعرفة، الإحسان)

الملخص:

موضوع البحث الذي بين يديك هو : (التوحــيد في محــبة الله سبيــل إلى محبة عباد الله) وتبرز أهمية هذا الموضوع من ناحية انه يهدف إلى توطيد الارتباط بين الإنسان وربه ،من جهة ،وبين الإنسان وأبناء جلدته من جهة أُخرى، واضح مالهذا الارتباط مــن مــداليل و تــداعيات إيجابية، على واقع الحياة الإنسانية .

وسوف نتحدث – إن شاء الله – في هذا البحث عن محورين أساسيين ؛ نتناول في المحور الأول ، حب الله ، وما يتطلبه هذا الحب من مقدمات ومستلزمات ، ونتناول في المحور الثــاني ،محبة عباد الله ، وما يتطلبه هذا الحب من مواقف إزاء الأصدقاء والأعداء،والمؤمنين والكفار.

وفي نهاية المطاف نقف –إن شاء الله – على النتائج التي تمخض عنها هذا البحث،فمنــهُ تعالى نستمد العون في طريق الهدى إنّه مجيب الدعاء.

Monotheism is the Love of Allah And a Way to the Love of His Servants

Sadik Kazem Abbas Al Saadi
College of Imam AL- Kadhum
(peace be upon him)
Sharia'a Department
Email: sadeghsaedi60@yahoo.com

Keywords (monotheism , ,love, worship ,knowledge, charity)

Abstract:

The aim of this study is to emphasize the relationship between man and his Lord on one hand ;and man and the people of his kind on the other hand. This relationship has its positive effect on man's life . The research is based on two axes: the first axis , the love of Allah ,and

what is required of this love. The second one discusses the relationship between friends and enemies and believers and disbelievers The conclusion sums up the finding of the study.

المقدمة :

يميل الإنسان بطبعه إلى إقامة علاقات اجتماعية طيبة؛ تشده إلى أبناء جلدته، على أسس المحبة و الود والانسجام ،وبعيدة عن ألوان التقاطع والضغينة والحقد ؛ التي تُسهمُ في تنغيص عيشه، وتُحيلُ حياته إلى عذاب لا يُطاق؛ تتحكم فيها شريعة الغاب ، ويأكل القوي فيها الضعيف.

وانطلاقا ممّا تقدم وضعنا اليد على موضوع: (التوحيد في محبة الله سبيل إلى محبة عباد الله)، ليكون محور بحثنا الذي بين يديك، آملين أنْ يوفقنا الله لرسم معالمه،إنّه تعالى ولي النعماء.

وتبرز أهمية البحث في توطيده لعلاقة الإنسان بربه، وإرسائه للعلاقات الاجتماعية ؛عبر أواصر الحب والود الناشئِة من حب الله ووده؛ التي من شأنها إضفاء المتانة والقوة والعمق والثبات لحب الناس لبعضهم الآخر.

وتعلية على ما سبق فسوف يدور بحثنا- إن شاء الله تعالى –حول محورين أساسيين يكون الأول منهما ممهداً للثاني.

وأول هذين المحورين يتناول حب الله تعالى ،وما يتطلبه هذا الحب من خطوات و مستلزمات ؛ لأنّ حبَّ الله ظاهرة كغيرها من الظواهر ،لها عللها وأسبابها، فلا يمكن نيلها والحصول عليها من فراغ؛ فهي بحاجة إلى سعي وجهد ومثابرة للوصول إليها؛ لبناء أسسها وصرحها.

وثاني هذين المحوريين يتمثل بمحبة عباد الله ؛ الذي يُعد انعكاساً وصدًى عن حبَّ الله تبارك وتعالى. وحب عباد الله يتوقف بدوره على مقدمات ومستلزمات؛ فلا يمكن تبلوره بدونها .

ونسأل الله أن يأخذ الله بأيدي الجميع ليتفيؤوا ضلال محبته، ويرتشوا من رحيق مودته ، ويتنعموا برحمته ورضوانه .إنّه فعّال لما يشاء .

المطلب الأول حبُّ الله :

لايشك أحدٌ من أهل الأديان أنَّ بوصلة الوجود برمّته تتجه إلى الله، فهو تعالى المقصد والمنتهى ،والغاية التي وجد الإنسان من أجلها،وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في قوله تعالى:

(إنّ إلَى رَبّكَ الرُّجْعَى) [1]

وقوله: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيه)[٢]

والسر يكمن في أنَّ زمام كل شي بيده، فهو تعالى خالق وربُّ كلَّ شيءً.

وقوله: (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [٣]

(ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)[٤]

فما من شيء إلا وهو من فيض وجوده وعطائه ،ونفحة من نفحاته، وأثر من آثار إرادته وعلمه وقدرته تبارك وتعالى ،إنّه سبحانه معدن لكلّ كمال وجمال ،ولا يقر لحركة البحث عن الكمال والجمال قرار، إلا بالاتجاه إليه تعالى، إذ لا توجد جهة غير الله سبحانه تلبي رغبة الإنسان اللامتناهية في الحصول على الكمال ،إذ قال تعالى :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[٥]

فالله تعالى محض كمال وجمال ،كما ورد في الدعاء :

(اللهم إني اسألك من جمالك بأجمله وكل جمالك جميل، اللهم إني اسألك بجمالك كله، اللهم إني أسألك من كمالك بأكمله وكل كمالك كامل ،اللهم إني أسألك بكمالك كله)[٦]

وإنّ الإنسان ليشعر بالخسارة والغبن في حال اختياره للحسن وتركه للأحسن، أو انتقائه للجميل وعزوفه عن الأجمل، أو انتخابه للكامل وإعراضه عن الأكمل، أو ميله إلى الفاني ونبذه للباقي ، فإنّ ذلك و أمثاله مرفوض في منطق العقل و العرف ، ولا ينسجم مع مقاييس الربح والخسارة.

وكيف يصح لعاقل استبدال جمال الله وكماله المطلق اللامحدود،بما سواه من موجودات وكمالات محدودة ومحكوم عليها بالفناء و الانتهاء؟!

وفي ذلك قال الإمام الصادق(ع) : (لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عز وجل ما مدّوا أعينهم الى ما متع الله به الاعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، و كانت دنياهم أقل عندهم مما يطأونه بأرجلهم ،و لنعموا بمعرفة الله جل وعز ،و تلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله)[٧]!

اولاً : معرفة الله

إنّ حبَّ الله لم ينشأ من فراغ، بل له منشأ، ومنشؤه معرفتنا له تعالى ؛ فما لم نعرف الله لا يمكن أن يتبلور حبه في قلوبنا ؛ إذ كيف نحب شيئاً لا معرفة لنا به.

ولكن المشكلة التي تواجهنا في طريق معرفة الله هي أن ذات الله القدسية مطلقة لا محدودة ، وعقولنا مقيدة ،ومحدودة ولا يمكن لمقيد محدود الإدراك، أن يحيط علماً بموجود مطلق لا حدود له.

ومن هذا المنطلق ورد النهي عن التفكر في ذات الله القدسية .

فقال رسول الله(ص): (تفكروا في كل شيء ، ولا تفكروا في ذات الله)[٨]

وعن الإمام علي(ع): (من تفكر في ذات الله سبحانه ألحد)[٩]

والى جانب الروايات الناهية عن التفكر في ذات الله سبحانه وردت روايات أخُرَ تحث على التفكر في معرفة الله مؤكدة أنَّها أكمل المعارف و أعلاها.

فعن أمير المؤمنين علي (ع):(من عرف الله كملت معرفته)[١٠]

وعنه (ع):(معرفة الله سبحانه أعلى المعارف)[١١]

والجامع لهذا التضارب في مفاد الروايات هو: إنّنا مأمورون بالبحث عن معرفة الله ؛ معرفة إجمالية،وذلك من خلال النظر إلى بديع صنعه و آيات خلقه؛ وصولا إلى معرفة أصل وجوده وصفاته سبحانه، من دون الدخول إلى كُنهها وتفاصيلها ،وبعيداً عن الولوج في أعماقها و أغوارها.إذ قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [١٢]

فنتعرف على وجوده تعالى من خلال آثره ، ونطلع على علمه وقدرته وقيوميته من خلال بديع خلقه . وهذا النمط من المعرفة برهاني يقوم على أساس الأدلة العقلية .

والى جانب هذه المعرفة توجد معرفة أخرى تسمى بالمعرفة القلبية ،إذ يدرك الإنسان من خلالها خالقه عن طريق الشهود والحس الباطني ،اعتمادا على فطرته التي فطره الله عليها كما قال تعالى :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)[١٣]

(عن عمر بن أذينة قال: سألت أبا جعفر عن قول الله "حنفاء لله غير مشركين به" ما الحنفية؟ قال (ع) :هي الفطرة التي فطر الناس عليها ، فطر الله الخلق على معرفته)[١٤]

وهذه المعرفة الناشئة من الفطرة ليست على نحو واحد عند العارفين بها؛ إذ تتفاوت درجاتها شدة وضعفًا تبعًا لسلوك الإنسان وسيره إلى الله، فتزداد كلما زاد التزاما وعملاً بأحكام الله وتعاليمه ،وتتناقص مع تراجع التزامه وضعف طاعته له سبحانه وتعالى.

ففي الدعاء الذي ينقله أبو حمزة الثمالي عن الإمام السجاد (ع):

(وإنّ الراحل إليك قريب المسافة، وأنك لا تحتجب عن خلقك ألا أن تحجبهم الأعمال دونك)[١٥]

وتجدر الإشارة إلى أنّ معرفة الله وصفاته وكماله وجماله ... تبعث بطبيعتها على محبة الإنسان لله تعالى ،والميل إليه والإعراض عمن سواه ،لأنّ جميع ما سوى الله كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماءً، فما من شيء ألا وهو نفحة من نفحاته وظل من ظلاله واثر من آثاره القدسية و

وفرع من وجوده ؛ وهل يعقل التشبث بالفرع وترك الأصل ؛ قال الإمام الحسين (ع) في دعاء عرفة :

(ماذا وجد من فقدك ،وما الذي فقد من وجدك ،لقد خاب من رضي دونك بدلاً)[١٦]

وقد وجد الموحدون في الله محبوباً أوحدا، فهم محبون له بل والهون فيه،كما ورد في زيارة أمين الله المنقولة عن الإمام الصادق (ع):

(اللهم إنّ قلوب المحبين إليك والهة، وسبل الراغبين إليك شارعه)[١٧]

ثانياً :السبيل إلى محبة الله

لا يمكن الاكتفاء بمعرفة الله لنيل محبته تعالى، لأنّ المحبة لها سُبلها وأسبابها التي تتقوم وتتبلور بها ،وفي طليعتها:

أ- طاعة الله : في كل حال ؛ في الرخاء والشدة، وفي السر والعلن ، وفي السراء والضراء، لأنّ من لوازم الحب إرضاء المحبوب، ولا يرضى المحبوب إلا بطاعته فيما يأمربه وينهى عنه،فعن الإمام الصادق (ع) انه قال :(ما أحب الله من عصاه) ثم تمثل فقال :

تعصي اللإله وأنت تظهر حبَّه هذا محـال فـي الفعال بديـع

لـو كان حُبك صادقـا لأطعتـه إنّ المحبَّ لمن يحب مطيع[١٨]

والسبب في ذلك هو : أنَّ محبة المحب لمحبوبة ؛المحبة الكاملة تكشف عن أنّ المحبَّ راضٍ عن حبيبه رضاً كاملا ؛إذ لو كان قد رضي عنه في جانب ولم يرضَ عنه في جانب آخر ، لما أحبّه حبّا كاملاً ،ومن لوازم الحبّ الكامل للمحبوب التسليم الكامل له في كل ما يأمر به وينهى عنه ؛ولأنّ أمر المحبوب ونهيه معبران عن إرادة المحبوب ،وهذه الإرادة محبوبة عند المحب .

هذا من جانب، ومن جانب آخرنرى التمرد والعصيان والتنصل عن أوامر المحبوب ونهيه تفضي إلى تلبيد أجواء الود ،وإيجاد الفواصل بين المحب ومحبوبه ؛ لما يحمله العصيان من روح عدوانية تتنافى مع روح الوصال والمحبة والصفاء القائمة بينهما.

فشاخص المحبة هو طاعة المحبوب في كل ما يأمر به وينهى عنه، ومن دونهما تتلاشى دعوى المحبين بعصيانهم وتمردهم إذ قال تعالى:

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)[١٩]

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[٢٠]

وقال الإمام علي (ع) : (إن تتنزهوا عن المعاصي يحببكم الله)[٢١]

ب- ذكر الله: هو استحضار ذات الله القدسية بكل ما تحمله ذاته تعالى من صفات حسنى ، لاستشعاره المثول بين يديه تعالى.

وواضح مالهذا الاستحضار والاستشعار، من أثر على حسن أداء المحب وسلوكه ؛ لاعتقاده بأن الله يسمع ويرى ،حاضراً وناظراً.كما قال تعالى:

(أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)[٢٢]

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [٢٣]

وهكذا يكون للذِكر أثرٌ فعّال في برمجة سلوك العبد وسَوقِه باتجاه الإخلاص ، في منأى عن الغَدش والنفاق.

فقال النبي (ص) : (من أكثر ذكر الله عز وجل أحبه الله، ومن ذكر الله كثيراً كُتبت له براءتان :براءة من النار وبراءة من النفاق)[٢٤]

وقال الإمام زين العابدين(ع): (اللهم صل على محمد واله ،ونبهني لذكرك في أوقات الغفلة ،واستعملني بطاعتك في أيام المهلة، وانهج لي إلى محبتك سبيلاً سهلة، أكمل بها خير الدنيا و الآخرة)[٢٥] .

ج- الإحسان: الإحسان صفة جامعة لكل ما هو حسن من الصفات الحميدة والأعمال الطيبة ؛ وسمة ذات معطيات وآثار بناءة ،وهي سبيل إلى محبة الله ورضوانه، وهي أفضل زراعة واربح تجارة، قال تعالى:

(أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[٢٦]

وقال :(إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) [٢٧]

وقال تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [٢٨]

وقال الإمام علي (ع): (عليك بالإحسان فانه أفضل زراعة واربح تجارة)[٢٩]

وعنه(ع): (الإحسان محبة) [٣٠]

وعنه(ع): (نعم زاد المعاد الإحسان إلى العباد)[٣١]

والإحسان خطوة باتجاه القرب إلى الله ،فيزداد العبد قربًا إلى الله كلما زاد من إحسانه ،ويزداد تبعا لذلك حب الله للعبد، وحب العبد لله، وتتوثق العلاقة بينهما، وينشأ في ظلها تلاحم ووحدة ترقى بالعبد ،ليكون مثل الله في إرادته وقدرته ...يقول للشيء كن فيكون كقول الله للشيء كن فيكون.

عن النبي (ص): (قال الله :ما تحبب إليَّ عبد بشيءً أحب إليَّ مما افترضت عليه، وانه ليتحبب إلي بالنافلة حتى أحبه ،فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ،ولسانه

الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ،فإذا دعاني أجبته ،وإذا سألني أعطيته)[٣٢]

وروى الحافظ البرسي قال في الحديث القدسي عن الرب العلي انه: (عبدي اطعني أجعلك مثلي، أنا حي لا أموت وأجعلك حياً لا تموت ، أنا غني لا أفتقر أجعلك غنياً لا تفتقر ، أنا مهما أشاءُ يكون ،أجعلك مهما تشاء يكون)[٣٣]

وإذا ما بلغ الإنسان هذه المنزلة وهذا المقام يكون حينها أهلاً لخلافة الله على أرضه ، وجديراً بتنفيذ أحكامه والعمل بإرادته ، وهو ما يدلنا على فلسفة استخلاف الله تعالى للإنسان على أرضه بقوله :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [٣٤]

ومن الواضح أنّ لهذه المحبة أثرٌ في تجديد الحياة وتطويرها ، ودفعها نحو الصلاح والفلاح، فتتوطد في ظلها العلاقات الاجتماعية ،ويتماسك الناس على صعيدها كالجسد الواحد يشد بعضه بعضاً، بانسجام ووئام وألفة واحترام.

وهذا ما نريد التحدث عنه في العنوان الآتي إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني :المحبة الإنسانية

المحبة سبيل لانفتاحنا على غيرنا ،ومحفز لإقبال الآخرين علينا ،وباعث على ردم الفواصل ،وحل عقد التقاطع والتصادم ،وفتح فرص التفاهم بين المتخاصمين ،وإرساء الوحدة واللُحمة بين الجميع.

والدعوة إلى المحبة لا تتجه إلى طيف خاص ولا إلى مذهب معين ،بل هي عامة للجميع ،وهي هدف يصبو الدين إلى تحقيقه، فقد نُقِل عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) قوله:

(تحبب إلى الناس يحبوك)[٣٥]

وفي وصية الإمام علي (ع) لابنه الحسن (ع) قال فيها:

(أحسن إلى جميع الناس كما تحب أن يحسن إليك، وارض لهم ما ترضاه لنفسك، واستقبح لهم ما استقبحته من غيرك وصُن مع الناس خُلقك حتى إذا غبت عنهم حنو إليك وإذا مِتّ بكوا عـــليك)[٣٦]

زد إلى ذلك أنّ الإنسان اجتماعي بطبعه، يميل إلى التعايش مع أبناء جلدته وإنّه لا يستغني في تمشية أموره في معزل عن غيره ،لأنّ الحياة الاجتماعية ،كفيلة بتأمين حاجاته ؛ التي يعجز بمفرده عن تحصيلها ، فهو بحاجة إلى نافذة الحب حتى يلج عن طريقها إلى المجتمع ليكون جزءًا منه فيتفاعل معه أخذاً وعطاءً.

كما قال الشاعر :

النـــاس للـــناس من بـــدوٍ ومـــن حضـــر

بـــعض لبـــعض وان لـــم يشـــعروا خـــدم

ولا يمكن أن يُحرز التعايش الاجتماعي تقدماً أو نجاحاً إلا إذا تعزز بالمحبة والمودة والرحمة، وألا مُنِيَ بالفشل أو التعثر ،فلا يصل إلى أهدافه المنشودة.

وقد أدرك هذه الحقيقة المشرفون على إدارة المراكز السياحية والتجارية التي تكسب أرباحها من توافد الناس عليهم ؛ فعمدوا إلى الدقة في اختيار من تتوافر فيه عوامل النجاح لإدارة هذه المراكز ،كحُسن الخَلقِ والخُلقِ والمنطق ... التي تثير بمجموعها المحبة لهذه المراكز والرغبة فيها ؛ ما يبعث على استقطابها لزبائنها ، وتشويقهم إلى معاودة ارتيادها ، والتعاطي معها.

وهكذا نجد آثار المحبة وبصمتها متجلية في جميع مفاصل الحياة ومناحيها المتعددة ، فتؤثر تأثيراً ايجابياً في المعمل و المزرعة والمدرسة وفي الاماكن العامة والخاصة وفي الأسرة ... ومن دونها لا يهنأ العيش لأهله ، فتراهم من دونها جميعا وقلوبهم شتى.

اولاً :الحب في الله والبغض فيه

إنّ كلَّ محبة لا تنشأ من حب الله فهي عرضة للزوال والاندثار ،لأنّها في الغالب ذات دوافع نفعية مادية محدودة ، فإذا زالت دوافعها ؛تحولت إلى أثر بعد عين.

وعلى خلافها تكون المحبة في الله ،فلا ينتهي أمدها ولا يخفت نورها ، لأنّها نابعة من معينٍ لا ينضب ، فهي انعكاس عن حب الله وصفاته الأزلية و اللامحدودة .

والحب في الله ، وفي سبيل الله ،ومن أجل الله هو في حقيقته إيمان بالله ،لأنّ الإيمان ميل قلبي إلى الله ، وشعور بالانجذاب إليه تعالى ،وكلما زاد الإيمان به تعالى زاد الانجذاب إليه والتخلق بصفاته الحسنى ؛ متمثلة بالخير ومتجلية بالجلال والجمال والكمال ، وما حُب الآخرين إلا امتداد لها، وانشعاب عنها .

و لا معنى للتعاطي بالحب والود مع أعداء الله وأعداء أوليائِه ؛ لأنّ حبّ العدو يعني الوقوف معه في خندق ،والسخط لما يسخطه ،والرضا بما يرضيه ، وهذا يعني بأن حب أعداء الله في واقعه بغض لله و لأوليائه، ونبذ لجماله وكماله ،وتقاطع لما يحبه ويرضى عنه ، وتواصل مع ما يغضبه ويسخطه ، إذ لا يجتمع محبوبين متضادين في قلب واحد،إذ قال تعالى:

(مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) (٣٧)

و لا سبيل لخلوص الحب لله إلا بالتقاطع مع أعدائه وإبداء الشدة لهم ،ومجانبة مجتمعهم .

قال تعالى :

(لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) (٣٨)

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (٣٩)

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ) (٤٠)

وقال تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (٤١)

وقال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)(٤٢)

بل إن الدعوة إلى البغض في الله تسري إلى أقرب المقربين من الإنسان ،وهم أرحامه المقربين إليه .

قال تعالى :

(لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٤٣)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(٤٤)

وهذا يعني أنّ المحبة قد تنحرف عن مسارها الصحيح فتتحول إلى معول هدام ووسيلة مخربة ، فتخرج عن حد اعتدالها ؛ الأمر الذي يتطلب استبدالها بما هو انسب .

نعم إذا كان موقف أهل الكتاب أو غيرهم إزاء المسلمين حياديًا، أو ايجابيًا فلا مانع حينها من إسداء البر والمحبة والقسط إليهم قال تعالى :

(لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (٤٥)

وبعد كل ما تقدم ندرك المعنى الذي أراده قادة الدين من أنّ الحبَّ في الله والبغض في الله من أفضل الأعمال ومن أوثق عُرى الإيمان ؛ لان الحب في الله سبيل إلى كل خير ،وأنَّ البغض في الله نجاة في كل شر . فعن أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال :

(من أوثق عرى الإيمان ؛ أن تحب في الله ،وتبغض في الله ،وتعطي في الله وتمنع في الله)(٤٦)

وعن فضيل بن يسار : سألت أبا عبد الله (ع) عن الحب والبغض أمن الإيمان هو ؟ فقال : وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟!

ثم تلا هذه الآية :(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)[٤٧]

وعن الإمام الصادق (ع): قال رسول الله (ص) لأصحابه : أيُّ عرى الإيمان أوثق؟ فقالو: الله ورسوله أعلم ، وقال بعضهم : الصلاة ، وقال بعضهم : الزكاة ، وقال بعضهم : الصيام ،وقال بعضهم الحج والعمرة فقال رسول الله (ص): لكل ما قلتم فضل وليس به ،ولكن أوثق عُرى الإيمان الحب في الله ،والبغض في الله، وتوالي أولياء الله والتبري من أعداء الله)[٤٨]

ثانياً:المحبة والقانون

يهدف القانون من تعليماته إلى تنظيم سلوك الناس ورسم خارطة طريق لإقامة الحياة على أساس العدالة الاجتماعية ،ومن الواضح أنَّ تحقق ذلك رَهين بخطوتين أساسيتين:

الأولى: الدقة في تعيين المشكلة وتشخيصها لعلاجها . وهذه الخطوة في غاية الدقة والصعوبة ، وعلى أعتابها كَبَتْ مدارس اجتماعية وفكرية ، وفشلت في تنظيم حياة الإنسان التنظيم الأمثل ، وساقتها إلى التيه ، ودفعتها إلى الهاوية .

الثانية: ضمان التطبيق إذ قد يواجه الحل فشلاً في التطبيق على الرغم من تشخيصه للمشكلة وعلاجها ،إذ يواجه الحلُ في طريق تطبيقه معوقات تمنع من تنفيذه ، وتحول من دون نجاحه ، فيحتاج القانون إلى سند يضمن نجاحه.

فالشيوعية الماركسية –على سبيل المثال- قد انتكست في التطبيق حينما واجهت رفضًا جماهيريًا واسعًا،وذلك بعدما ألغت الملكية الخاصة وأحالتها إلى ملكية عامة ، اعتقاداً منها بصحة حلها وصوابه ،فلم تنجح في تطويع الناس لتنفيذ ما خططت له ؛ فاضطرت إلى حل وسط ،متمثلٍ بالاشتراكية ،التي تعطي للفرد حقاً محدوداً في التملك .وهذا يعني أنّ ضمان التطبيق مَثّلّ عنصراً أساسيا من عناصر الحل ، وقد غفلت عنه الماركسية [٤٩]

وهكذا يتضح أنّ التضحية من أجل غيرنا تتوقف على محبتهم والعطف عليهم ؛وهي بدورها لا تنشأ من فراغ ، لحاجتها إلى ما يُنْشؤُها وينميها ، ويرسي قواعدها وأسسها . وهو ما عجزت عن تحقيقه المدارس الفكرية القائمة على مفاهيم الربح والخسارة المادية . وعلى خلافها نجح الدين في غرس روح التفاني والمحبة والرحمة والتضحية في نفوس أتباعه ، لتكون عامًلا مساعدًا، وضماناً لتنفيذ القانون عبر أسلوبين[٥٠] :

أ: تركيز الجانب الواقعي للحياة ،والتأكيد على أنَّ الحياة الدنيوية خطوة أولى نحو حياة أخروية خالدة ، تتحقق في ظلها السعادة على مقدار ما يقدمه الإنسان من بذل وتضحية وخدمة للآخرين.

وبذلك وسع الدين من دائرة وجود الإنسان ،ومنحه نظرة أعمق إلى مصالحه ومنافعه ،فعّد الخسارة العاجلة ربحاً آجلاً ، ومن الأرباح العاجلة خسارة حقيقية في نهاية المطاف.كما قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَ)(٥١)

وقوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٥٢)

وقوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) (٥٣)

وبهذا التطوير العقدي والمعرفي لمقاييس الربح والخسارة ، تكون مصلحة المجتمع امتداداً لمصلحة الفرد وعلى خط واحد ضمن معادلة الأجر والثواب الأخروية ،التي صاغها القرآن الكريم.

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (٥٤)

ب: التعاهد والتباني على تربية الإنسان روحياً، والعناية به عاطفيا بهدف تفتيق مكنوناته وقابليته الخلقية ،وتحفيزه إراديا لحب البذل والتضحية والخير والعطاء والمحبة .

وقد قامت بهذه الوظيفة رسالة الدين بقيادته النزيهة، وأصبح الإنسان بفضلها محباً للقيم والمثل التي ترعرع عليها، ونشأ على احترامها وتقديسها.

وبهذين الأسلوبين ضمن الدين –إلى حد كبير- تنفيذ اتباعه لوصاياه وتعاليمه في شتى حقول الحياة ،بما فيها دعوته إلى التحابب والتوادد ،بينما عجزت التيارات والاتجاهات المادية عن سوق ،إتباعها نحو ذلك ،لاسيما في حالات التقاطع بين المصلحة الخاصة والعامة .

الخاتمة :

نخلص ممّا تقدم الى النتائج الآتية :

١- إنّ التوحيد في محبة الله غاية في نفسها ،ووسيلة لتحقق غيرها .

أمّا كون حب الله غاية في نفسه ؛ فلأنّ دأب الإنسان هو السعي للوصول إلى أسمى الغايات والأهداف التي من شأنها إضفاء الروح والراحة والطمأنينة على حياته، ولاسَعيَ أجدر من حب الله والقرب إليه ،مجسداً لذلك الهدف ومحققاً لذلك الطموح .قال تعالى :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (٥٥)

وأما كون التوحيد في محبة الله وسيلة لتحقيق غيرها، فلأن التوحيد في محبة الله يؤسس لبناء علاقات اجتماعية متينة ووطيدة بين عباد الله ، تسودها المحبة والود والاحترام ، في ظل العدل والإنصاف .

٢- وفي ضوء ما سلف يتبين لنا أنّ للتوحيد في محبة الله تعالى آثاراً وانعكاسات على واقع الحياة الإنسانية؛ لأنّ محبة الله تضفي صبغتها على نفوس محبيه ؛ لتكون حياتهم مسرحاً ومصداقاً لإرادة الله وجماله وكماله ورحمته وعطائه، وعلى هداها تشرق الأرض بنور ربها ،وترتسم معالم الطريق إلى طاعة الله ورضوانه ، وهو ما يصورهُ لنا الإمام علي ابن الحسين زين العابدين (ع) في مناجاته المعروفة بمناجاة المحبين ،بقوله :

(يا غاية آمال المحبين أسألك حبَّك وحبَّ كلِّ عمل يوصلني إلى قربك ،وأن تجعلك أحب إليَّ مما سواك ،وأن تجعل حبي قائداً إلى رضوانك ،وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك)[٥٦]

٣- ويتبين إلى جانب ما تقدم أنَّ الدعوة إلى محبة عباد الله ليست مطلقة العنان ،ومجردة عن كل قيد وشرط ، بل إنها محبة متزنة ومنضبطة ، وبعيدة عن الأهواء و والعواطف الهوجاء ومتسمة بالحكمة والمنطق والعقل.

الهوامش:

(١)سورة العلق : الآية (٨).

(٢) سورة الانشقاق: الآية (٦).

(٣) سورة غافر: الآية (٦٢).

(٤) سورة الانعام :الآية (١٠٢).

(٥)سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٦)القمي، عباس،(مفاتيح الجنان)،ص٣٣،ط١،الناشر كالعتبة الحسينية المقدسة السنة:١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(٧) الكليني ،ابو جعفر، محمد بن يعقوب (الكافي)،ج١٥،ص٥٦٣،ط١،الناشر:دار الحديث للطباعة والنشر ،قم-ايران، السنة :١٤٢٩هـ.

(٨) الري شهري ،محمد ،(منتخب ميزان الحكمة)،ح١١٩٩٢،ط٩،الناشر دار الحديث للطباعة والنشر ،السنة:١٤٣٤هـ.

(٩) نفس المصدر ،ح١٢٠٠٣.

(١٠)المصدر السابق:،ح١١٩٣٤.

(١١)المصدر السابق ،ح١١٩٣٥.

(١٢) سورة فصلت :الآية (٥٣).

(١٣) سورة الروم : الآية (٣٠).

(١٤) البرقي ، احمد بن محمد بن خالد، (المحاسن)،ج١، ص٢٤١، ح٢٢٣،ط:بلا ،الناشر دار الكتب الاسلامية –طهران ، السنة: ١٣٧٠ هـ.ش.

(١٥) مفاتيح الجنان،دعاء أبي حمزة الثمالي ،ص ٣٣٢.

(١٦) (مفاتيح الجنان)،من دعاء عرفة للإمام الحسين (ع)،ص ٤٥٨.

(١٧) القمي ،بن قولوية ،(كامل الزيارات)، زيارة أمين الله، تحقيق ونشر مؤسسة نشر الثقافة - قم ،ط١،السنة:١٤١٧هـ.

(١٨)الحراني، ابن شعبة ،تحف العقول ص٢٩٤،تحقيق علي أكبر الغفاري، ط٢، الناشر: مؤسسة النشر الاسلامي ، قم المقدسة ،ط ٢،السنة:١٤٠٤هـ.ق.

(١٩)سورة آل عمران : الآية (٣٢).

(٢٠) سورة آل عمران :الآية (٣١).

(٢١)الآمدي ،(الغرر والحكم)،٣١٥٨،ط١، الناشر :جامعة طهران ،السنة :١٣٦٠ هـ،ش.

(٢٢) سورة العلق : الآية (١٤).

(٢٣) سورة غافر: الآية (٢٠).

(٢٤) الحر العاملين، (وسائل الشيعة)،ج٧،ص ١٥٤،ط٢، الناشر :مؤسسة آل البيت ، السنة : ١٤١٤هـ ،قم – طهران.

(٢٥) مفاتيح الجنان :دعاء مكارم الاخلاق للإمام زين العابدين (ع) ،ص١٦٠.

(٢٦) سورة البقرة : الآية (١٩٥).

(٢٧) سورة النحل: الآية (٧).

(٢٨) سورة يوسف : الآية (٩٠).

(٢٩) منتخب ميزان الحكمة الحديث ،السنة : ١٦١٩هـ.

(٣٠) الليثي الواسطي ، علي بن محمد ،(عيون الحكم و المواعظ) ،ص٣٧،ط١،الناشر :دار الحديث، السنة: بلا.

(٣١)منتخب ميزان الحكمة :١٦٢

(٣٢) المحاسن ،ج١ ، ص٢٩١.

(٣٣) المجلسي (بحار الانوار)،ج ١٠٢، ص١٦٥،ط ٢، الناشر : مؤسسة الوفاء –بيروت السنة : ١٤٠٣ هـ.

(٣٤) سورة البقرة : الآية (٣٠).

(٣٥) الحر العاملي ، (وسائل الشيعة) ،ج١٢ ،ص٥٢، باب :١٢١ من ابواب احكام العشرة ،ط١ ،مؤسسة آل البيت ،السنة :١٤٠٩هـ.

(٣٦) نفس المصدر ، ص٢٠٢، الحديث (٨).

(٣٧) سورة الاحزاب : الآية (٤).

(٣٨)سورة أل عمران : الآية (٢٨).

(٣٩)سورة المائدة : الآية (٥١).

(٤٠) سورة المائدة : الآية (٥٧).

(٤١) سورة الفتح : الآية (٢٩).

(٤٢) سورة الممتحنة :الآية(٤).

(٤٣) سورة المجادلة :الآية (٢٢).

(٤٤) سورة التوبة : الآية (٢٣-٢٤).

(٤٥) سورة الممتحنة: الآية (٨).

(٤٦) الكافي،ج٢،ص١٢٥.

(٤٧) نفس المصدر :ج٢،ص١٢٥.

(٤٨) المصدر السابق :

(٤٩) من اجل التوسعة ؛ينظر الصدر ،محمد باقر (فلسفتنا)،ص٣٥-٤٥،ط١،الناشر :مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ،السنة:١٤٢٤ هـ.ق.

(٥٠) نفس المصدر ،ص٥٥-٥٩ من اجل الوقوف على تفاصيل الاسلوبين المذكورين ،ينظر.

(٥١) سورة فصلت :الآية (٤٦).

(٥٢) سورة لنحل : الآية (٩٧).

(٥٣) سورة الزلزال: الآية (٦-٨).

(٥٤) سورة البقرة : الآية (١١٠)

(٥٥) سورة الرعد : الآية (٢٨).

(٥٦) مفاتيح الجنان،ص٢٣٩.

مصادر البحث

١- القرآن الكريم

٢- نهج البلاغة

٣- الآمدي (الغرر والحكم)،ط١، الناشر :جامعة طهران، السنة :١٣٦٠هـ.ش .

٤-البرقي ،احمد بن محمد بن خالد،(المحاسن) ،ط: بلا ،الناشر :دار الكتب الإسلامية- طهران- ،السنة١٣٧٠ هـ. ش .

٥-الحراني ،ابن شعبة ،(تحف العقول)،ط٢، الناشر :مؤسسة النشر الإسلامية، ألسنة ١٤٠٤هـ

٦-الحر العاملي،(وسائل الشيعة)،ط١،مؤسسة آل البيت ،السنة:١٤٠٩هـ.

٧-الري شهري،(منتخب ميزان الحكمة)،ط٩،الناشر :دار الحديث للطباعة والنشر ،السنة:١٤٣٤هـ.

٨- الصدر، محمد باقر،(فلسفتنا)،ط١،الناشر:مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ،السنة:١٤٢٤هـ.

٩- ألقمي،(ابن قولويه) ،ط١(كامل الزيارات)، تحقيق ونشر مؤسسة الفقاهة- قم،السنة:١٤١٧هـ.

١٠-ألقمي ،عباس ،(مفاتيح الجنان)،ط، الناشر :العتبة العباسية المقدسة،السنة:٢٠١٣م- ١٤٣٤هـ.

١١-الكليني،محمد بن يعقوب ،(الكافي)،ط٣،الناشر:دار الكتب الإسلامية-طهران- ،السنة:١٣٨٩هـ.

١٢- أللّيثي الواسطي، علي بن محمد ،(عيون الحكم و المواعظ)،ط١،الناشر :دار الحديث ،السنة: بلا.

١٣- ألمجلسي ،محمد باقر،(بحار الأنوار)،ط٢،الناشر:مؤسسة الوفاء -بيروت، السنة :١٤٠٣هـ.